صدر عن (المدى)

علي الشوك فيما يشبه السيرة المتخيلة

السراب الذي طارده المثقفون العراقيون

فاطمة المحسن
كاتبة

رواية علي الشوك الأخيرة (السراب الأحمر : سيرة حياة هشام المقدادي) الصادرة عن دار المدى، تطل على بغداد في تحولاتها الثقافية والسياسية،بين زمنين : الستينيات والسبعينيات من القرن المنصرم. وبما يشبه السيرة الذاتية المتخيلة، يسجل الشوك المثقف الباحث في غير مجال، تلك الوقائع التي غربت عن الذاكرة العراقية حين تناهبتها الحروب وازمنة الشتات.

في مفتتح روايته، يبني الراوي منتجعا للمثقفين العراقيين على كتف نهر ديالى، بضع أمتار عن أكبر تجمع لبساتين المنطقة الوسطى. ذلك الحيز لم يكن مجرد يوتوبيا ترمز الى عزلة المثقف عن مجتمعه،بل هو الواقع مجسدا في توق الانتلجنسيا العراقية الى استكشاف المكان العراقي والعودة الى الطبيعة وتكوين مستعمرة للحرية بعيدا عن رقابة السلطة. كانت تلك أيام البطل الاخيرة قبل أن يغادر وطنه في رحلة المنفى، وفرصة لاستذكار حياة تقع في فاصلة بين متع الثقافة ومنغصات السياسة.

يرسم الشوك معظم ملامح شخصياته من عالمه الخاص،وتكاد شخصية البطل وسيرته تطابق شخصية وسيرة الشوك نفسه.وهناك ما يدفع الى الاعتقاد بانه يسجل في رواياته الثلاث التي كتبها ونشر منها روايتين، سيرته وسيرة مجتمعه الثقافي الى الدرجة التي يسمي الراوي بعض الشخصيات باسمائها الحقيقية او يدمج سيرة شخصيات عرفها الوسط الثقافي وعرف مصائرها.

(السراب الأحمر) الذي يطارده الأبطال هو تلك الافكار التي تجمعهم بين ولاء الى الماركسية وانحياز الى الثقافة العارفة والطبقة الوسطى، بل نخبتها التي تعلمت في الخارج وتمتعت بامتيازات الرفاه المادي. بطله ابن تاجر ومن كبار ملاكي بغداد حيث ينحدر علي الشوك، يدرس الرياضيات في جامعة شيكاغو وينتمي الى اليسار الأميركي ويتزوج باميركية ويعود بها الى بغداد بعد ثورة قاسم. تمضي به الحياة رخية في الخمسينيات الى يوم الانقلاب البعثي الأول ١٩٦٣ حيث يسجن ويمر بدورة عذاب مر بها معظم من جذبه الفكر الماركسي. ولعل ماكتبه الشوك عن تجربته وتجربة رفاقه من المثقفين الذين دخلوا المعتقل في هذه الرواية، هو أفضل شهادة دونت عن السجون العراقية،وخاصة سجن المثقف والمخالف في الرأي،فهذا الذنب دفع ثمنه عدد لايستهان به من الأدباء والفنانين والأكاديمين والمشتغلين بالفكر والطب والهندسة وغيرها من الاختصاصات.

الرواية تقرأ مواضيع مهمة في سيرة المثقف العراقي، وأولها نخبويته فالبطل الذي يعيش في عالم الفنون الرفيعة وعشقه الموسيقى الكلاسيكية وحياته الراقية، يختار الماركسية والطبقات التي لايتيح له الوقت الدفاع عنها،ناهيك عن تمثيلها في الواقع. وتلك كانت مشكلة عويصة،فالماركسية التي هي خيار فكري أكثر منه ممارسة عملية للأنتلجنسيا العراقية، سببت بمصائر كارثية عند معتنقيها وكان هذا إيذانا بمآل جابهه العراق لاحقا في دولة شمولية لاتقبل بخيارات سوى الحروب. والحق أن علي الشوك لايتطرق في هذه الرواية الى نقاش الفكر المحض، او المفاهيم من حيث هي مجال ثقافي للسجال العقلي، غير أن الذي يجذبه سيرة الحياة بتفصيلها تلك التي بقي يحن اليها مذ غادر العراق قبل أزيد من ربع قرن. كان المثقفون الماركسيون لايملكون فرصا جدية للتعبير عن أفكارهم إلا عبر صحف قليلة هي في الأصل لاتحسب على المعارضة، ولكن تصفيتهم كانت هاجس البعث عند صعوده الى السلطة مرة اخرى،وتم إجتثاثهم بطريقتين : القتل أو السجن او الهروب من العراق،فكان بطل رواية علي الشوك من الفئة الاخيرة.

ثيمة المكوث والرحيل تسيطر على الرواية،وهي إمتداد لسؤال المثقف عن معنى التواصل مع الناس أو الأوجه المتعددة لفئوية المثقف. والحق أن المجتمع الثقافي في العراق كان وما يزال أكثر من مجتمع، فهو طبقات ومراتب وتجمعات تختلف طرق ممارستها الثقافية. ومنذ أربعينيات القرن المنصرم نشأت تجمعات نخبوية من أبناء الميسورين واصحاب الإختصاصات العلمية الراقية إنتظموا في حلقات صداقية تتداول الإصدارات وأحدث الأراء الغربية والموسيقى الكلاسيكية، وبعضهم أطباء ومهندسين ومعماريين وفنانين تشكيليين إضافة الى الأدباء. وهؤلاء الآن إنقرضوا في العراق وتشتت بقاياهم في السنتين الأخيرتين. كانوا يشكلون ما يشبه إرستقراطية الثقافة التي تبدلت ملامحها كثيرا في العهود المختلفة وخاصة بعد إجتياح الموجة الستينية للثقافة العراقية، ولكن تلك المجموعة بقيت محافظة على طقوس تواصلها الى فترة متأخرة. علي الشوك في روايته يسلط الضوء على جانب من هذا المجتمع. مفارقة الإنفصال والإندماج بين الثقافة العراقية والمجتمع عموما تبرز في هذه الرواية على غير صعيد. فهذا المجتمع المخملي له صلة "فكرية" مع الحزب الشيوعي، بل يرتبط بعضه بعلاقة تنظيمية معه، ولكن نتاج وعمل معظمه على تعارض مع فكرة جماهيرية الثقافة.

علي الشوك في روايته يسجل تلك الفاصلة من عمر الزمن الذي إضطر فيه الرحيل مودعا فردوسه المفقود في العراق. بطله يقول غداة الرحيل : ((كانت أحلامي كبيرة،حتى في هذه البلوعة النتنة التي نحيا وسطها. رضينا حتى بالتضحية بفضائنا العراقي، والإكتفاء بأعشاشنا الشخصية. كنا نستطيع أن نلتقي عندك، وعندي،وعند كمال، أو عزيز، ونستمع الى الموسيقى، ونحلم في فرص أخرى.)). يرتبط البطل بعلاقة حب مع إمرأة لبنانية الأصل والدها يعمل في العراق منذ فترة طويلة، فتنضاف عذابات جديدة الى فكرة الرحيل عن الوطن. الى ريف ديالى يذهب الأصحاب لتخفيف ضغط العاصمة، وفي هذا المكان تستعاد الحكايا السياسية والشخصية في سمر الليالي التي تجمع البطل بصديقه او المجموعة العائلية الملتفة حول سهر الساعات الأخيرة من النهار. الأزمنة تتداخل في تلك الحكايات، ولكنها تمضي في تعالق بين السياسة والحياة، لتنزاح الستارة عن الكثير من اسرار حياة المثقفين وصحبهم: موقفهم من الثقافة والحياة، تصورهم عن النساء،مفاهيمهم للصداقة. ولكن العلاقة بين الجنسين كانت في صلب المواضيع التي تشغل الرواية، إضافة الى السياسة. وعبرها سنكتشف مستويات متفاوتة من الصيغ التي يحاول المثقفون فيها تجسيد مفاهيمهم عن التابوات الاجتماعية بما فيها الحريات العامة والقانون.

صوت الراوي يستذكر تلك الازمنة التي تتداخل فيها القيم الاجتماعية بين المدينة والريف، المجتمع المغلق المحافظ والمجتمع المفتوح المتأثر بالحريات النسبية التي دخلته في تلك الفترة.طرأت الكثير من التغيرات على المجتمع العراقي وبقيت السنوات التي يصورها علي الشوك في روايته (السراب الأحمر) سنوات ازدهاره الإجتماعي والقيمي وانكفاءه السياسي. فهناك سلسلة من الانقلابات والإحتدامات السياسية، ولكن المجتمع بتطور قيمه نحو المدينية وبروز بغداد كحاضرة ثقافية،وموارد النفط التي كانت تعد بنهضة إقتصادية، كان هذا المجتمع يبدو وكان حركة التطور فيه تتجه بسرعة الى الأمام، قبل ان يدخل نفق الدولة الشمولية ثم نتائجها الحتمية: الحروب والهجرات.

أهمية الكتاب تتحدد بقيمة تلك السيرة التي تقترب من التسجيل لحياة علي الشوك ولمجتمعه الصغير، وفي ثناياها تضاء تلك العوالم المتحركة الواعدة التي انطوت تحت جناح الاطلاقة الأولى للحرب والقمع الشامل.هي قراءة في تاريخ الثقافة العراقية القريب، وسيرة واحد من أندر المثقفين العراقيين، علي الشوك الموسوعي الذي يذكر بكتاباته وسيرته الثقافية بعز بغداد الذي لا يأفل.

لوتي..عاشق الشرق

د.جليل العطية
باحث ومحقق

تستعد الاوساط الثقافية والاستشراقية الفرنسية للاحتفال بالذكرى المئوية للكاتب والمغامر (جوليان ماري فيو) في تشرين الثاني المقبل.

كان (فيو) قد ولد في روشفور وهي مدينة صغيرة تقع في غرب فرنسا وتطل على البحر وكان وحيدا في طفولته ولكنه لم يفتقد السعادة فهو اصغر افراد اسرته ولم يكن يحيط به كثير من الاطفال وكان شديد الشغف بالطبيعة حساسا ومن ثم مصدر المه خاصة وانه كان يعمد الى اللعب المنفرد ولا يذكر (لوتي) (جوليان ماري) في اوراقه شيئاً عن والده الذي كان طيبا ومحبوبا من المجتمع والاسرة وقد كرس (لوتي) حبه لامه ولم يبق شيئاً لوالده.

كان (لوتي) شغوفا يحب النساء وكان يخشى الموت طيلة حياته.

وقد وافقت الاسرة على التحاقه بالبحرية وقد التحق بمدرسة خاصة في باريس لكنه لم يعجب بعامة بلده كتب في مذكراته (وفي باريس كنت مثل احد اولئك البدائيين الشبان الذين ينتزعون من حياة الغابة دون ان تبدو عليهم علامات الدهشة، فلم يثرني فيها شيء ربما باستثناء اللوفر والاوبرا.

وقد ادى امتحانه التأهيلي وعاد الى (روشفور) غير آسف على (مدينة النور) ثم التحق بالخدمة البحرية حيث بدأ بعد تخرجه يجوب البحار ويتعرف على الشعوب.

وفي الجزائر عام ١٨٧٠ توفي والده المعين الوحيد للاسرة ما حمله عبء اعالة الاسرة وتسديد باقي ديون الاسرة. وفي نفس العام عين ضابطا بحريا عاملا وزار امريكا الجنوبية وبعدها زار تاهيتي وايستر وكان الجنس البدائي الذي يسكن الجزيرة قد لفت انتباهه ما شجعه ان يكتب عنه انطباعاته فوجدت من يرحب بنشرها من الناشرين. وهكذا تحول الى (قاص) معروف.

كانت رحلة لوتي الثانية الى السنغال ولما كان الناشرون يلحون في طلب مشاهداته عن افريقيا وبرغم انه بدأ كتابه الانطباعات والقصص سنة ١٨٨٠ أي بعد ستة اعوام من تركه السنغال، فان مادة القصة ذاتية الى حد كبير ومستقاة من اليوميات التي كتبها خلال قيامه بالخدمة بين داكار وسان لوي في عام ١٨٧٣,

وحين حل (لوتي) بالسنغال كان الاوروبيون قد شكلوا جالية صغيرة وقد كتب في يومياته:

(ان الاوروبيين الذين يأتون الى هذا المكان هم لاجئون او منفيون يجرون وراء الثروة على حساب الصحة او الحياة).

كانت هذه الحياة القاسية تختلف تماما عن جمال تاهيتي او حياة روشفور في هذه الفترة نشر (لوتي) (قصة سباهي) وقد حققت هذه القصة نجاحا كبيرا وهي تدور حول افريقيا السوداء بكل اساليبها الشريرة والتي لم يكن قد اميط اللثام عنها بعد فقد كانت يومذاك تعج بالسحر وطقوسه وبالامراض التي امكن فيما بعد التغلب عليها وبالحيوانات والاشجار والرقصات والموسيقى الافريقية التي التقطتها اذن (لوتي) الموسيقية قبل ان تشتهر في اوروبا.

وعاش (لوتي) فترة صاخبة في تركيا التي عشقها تماما وكتب عنها الكثير في الصحافة الفرنسية، لقد قرر ان يصبح جزءا من تيار الحياة الشرقية الذي كان ينبثق من شوارع الاسواق. حتى انه ارتدى الملابس التركية واتخذ لنفسه اسم (عاصم افندي الالباني)، كتب من هناك:

(ان الاوضاع في تركيا تجري على المنوال التالي: النساء للاغنياء الذين يستيطعون امتلاك الكثير..)

احب (لوتي) كل ما هو شرقي.. في قصة (ازيادي) نجده ينسج خيوطاً كثيرة الالوان: فهناك تفاصيل دقيقة وعادات وعقائد واشخاص غير عاديين.. هناك قصة الحب، الى جانب عرض شخصية المؤلف ورسم صورة ناطقة لاستنبول القديمة وقد اتقن اللغة التركية وطفق يغشى المجالس التركية في نمطها القديم، لا في النمط الجديد المستورد من الغرب: فالناس يجلسون على الأرض ويتحادثون بشان الحرب التي كانت توشك ان تندلع مع روسيا وشعوب البلقان.

في اوائل سنة ١٨٧٩ نشرت قصة (ازيادي) من دون توقيع، وكان عنوان القصة كالآتي:

(استنبول ١٨٧٦- ١٨٧٩) ملاحظات وخطابات ملازم في الاسطول البريطاني)

وبعد نشر قصة (زواج لوتي) جلبت الشهرة (للوتي) وفي ربيع ١٨٨١ ارست سفينة (لوتي) في الجزائر ويستمتع (لوتي) من جديد بالسماء الزرقاء ومياه البحر المتوسط، ومرة اخرى يجد (لوتي) نفسه في بلاد النخيل والسحر ويطرب لصوت المؤذن.

كان الاستعمار الفرنسي قد أدى الى تغير اوضاع الجزائر عما كانت عليه قبل سنوات (ولم يبق على حاله سوى المنازل وضوء الشمس) وقد الهمته هذه الزيارة بقصة (سليمة) و(سيدات القصبة الثلاث) وهنا نجده يعرض لمدينة (بابل) التي دبت فيها الروح الغربية، جاثية تحت اقدام مدينة عربية قديمة تحيا فيها النسوة نفس الحياة التقليدية القديمة.

وفي عام ١٨٨٣ ابحر (لوتي) الى الشرق الاقصى حيث كان الفرنسيون يدافعون بشراسة عن املاكهم الاستعمارية الشاسعة وبخاصة في الهند الصينية وفي سنة ١٨٨٥ توجه الى اليابان وفي اول كتبه عن اليابان وعنوانه (مدام كريسانتيم) وفي قصة (زواجه) الذي تم على شكل شبه تجاري مع احدى الفتيات اللاتي كانت أسرهن (تؤجرهن) لأي شخص!

وفي ١٨٨٧ دعته ملكة رومانيا لزيارتها، وبعد ان لبى هذه الدعوة عاد الى استنبول ليواصل البحث عن (ازيادي) وبعد ان عاد الى مسقط رأسه (روشفور) انكب على بناء مسجده الذي بناه على انقاض بيتين اشتراهما.

وفي ١٨٨٩ زار مراكش حيث الهمته قصة عنوانها (في مراكش) والتي قال في مقدمتها: لقد شعرت دائما بان روحي نصف عربية!

وفي قصة (لوتي) عن مراكش "نجده يصور حفل استقبال السلطان للسفير الفرنسي ويصف اسوار فارس المرتفعة وبهو السفراء الواسع، والجنود المرتدين ملابس براقة.

وفي سنة ١٨٩٤ حقق رغبة والدته بالحج الى الاماكن المسيحية في فلسطين، ولكنه آثر ان يبدأ بزيارة مصر وقد وصف رحلته في ثلاثية (الصحراء- القدس- الخليل).

وفي عام ١٩٠٣ نشر كتابه (الهند بدون الانكليز) وفي العام اللاحق نشر (صوب اصفهان).

وفي عام ١٩٠٥ تقاعد (لوتي) عن الخدمة البحرية وظل يواصل السفر والكتابة والنشر حتى رحيله.

تفتتح في الحلة قريبا

المدير المفوض : شركة برج بابل استجابة لزخم ابداع البابليين

مكتب المدى
بابل

تجري الاستعدادات في محافظة بابل لافتتاح شركة برج بابل للانتاج السينمائي والتلفزيوني المحدودة حيث تم تجهيز الشركة بالاجهزة والمعدات الفنية حتى تكون قادرة على مواكبة التطورات الحاصلة في الميادين (السينمائي والتلفزيوني والاعلاني) معتمدة على الطاقات الفنية العراقية سواء في بغداد او محافظة بابل او في عموم محافظات القطر واجرينا لقاء مع القاص والكاتب الدرامي سلام حربه المدير المفوض لشركة برج بابل للانتاج السينمائي والتلفزيوني المحدودة وكان بيننا هذا الحوار..

❖هل الفكرة من انشاء شركة برج بابل للانتاج السينمائي والتلفزيوني باعتباره تأسيسا لبنية تحتية فنية تخص الانتاج السينمائي والتلفزيوني في محافظة بابل..

❖محافظة بابل من المحافظات المتميزة في مجالي النشاط الفني والثقافي وقد تتقدم على العاصمة بغداد في امور كثيرة فهذه المحافظة التي شهدت ولادة اعظم حضارة في تاريخ الانسانية وهي الحضارة البابلية ليس بكثير عليها ان تنتج المبدعين من العلماء والمفكرين والادباء والفنانين مركز حضاري وانساني ..وعبر تاريخ العراق الموغل في القدم كانت بابل مركزا للحضارة وهي الاكثر انتاجا للشعراء والادباء قياسا الى عدد نفوس ساكنيها..ان فكرة انشاء مثل هذه الشركة هي لدعم مشروع المدينة الثقافي والفني ومحاولة من ابنائها على ترسيخ مفهوم ان مدينة بابل هي عاصمة العراق الثقافية وهذا ما سيشهده العراق والعراقيون في القادم من الاعوام ان حمى الله مبدعيها من رصاصات الغدر الطائشة..

❖هل ان لهذه الخطوة علاقة بالتحرر من هيمنة المركز بغداد وبعثاً للحياة الفنية في المحافظات؟.

- تبقى بغداد هي العاصمة ولكن الذي يجب ان يفهمه البغداديون ان مجمل حركتهم الفنية ونتاجهم هي من المحافظات فمعظم الطاقات الفنية والابداعية الموجودة في الساحة الفنية اصولها من المحافظات ولو ان البعض منهم يحاول التنصل من هذه (التهمة) حيث ان الشائع في الحياة البغدادية ان الحياة والفن تعني بغداد وما عداها فهي محافظات (متخلفة)..ان النظرة الدونية للمحافظات هي نتاج وضع سياسي قسري تكرس في عقل المواطن ومنذ اكثر من الف عام فكل من حكم العراق وحتى في ازمنة الاحتلال القديمة لا يهمه من العراق سوى بغداد وهذا ما لمس جليا في مرحلة النظام البائد حيث ان صدام كان يعمل لبغداد فقط ولم تشهد المحافظات وطوال المئات من السنين ليس بناء صرح حضاري ولا حتى زرع شجرة وهذا ما خلق ثقافة اجتماعية توارثت عبر الاجيال بان لا حياة اخرى جديرة خارج بغداد..

❖ هل يعني هذا انكم تحاولون سحب البساط من تحت اقدام بغداد..

❖ لا بالعكس..فبغداد تبقى هي بغداد ولكن يجب ان تكون الحياة ملونة فكما ان هناك حياة في بغداد يجب ان تكون هناك حيوات وبطعم خاص في المحافظات..ان مدينة الحلة لها طابعها الخاص وحتى هواؤها فهو هواء معتق بالتاريخ وعليه يجب ان تكون الحياة والطقوس والفن والثقافة ذات نكهة حلية تختلف بها عن بغداد وعن باقي المحافظات وكذلك الحال مع مدينة الناصرية مثلا فهي مسورة بالتاريخ وبالاهوار والطقوس الجنوبية الخلابة اعتقد ان شكل حياتها وطقوسها وفنها له سمات خاصة يجب ان يأخذ دوره في الحياة وكذلك الحال لمدينه الموصل وغيرها من المدن العراقية..

❖ما مشاريع الشركة في المستقبل القريب؟

- الشركة ستعمل على انتاج الافلام السينمائية والمسلسلات التلفزيونية سواء بالانتاج الخاص او بدور المنتج المنفذ مع القنوات الفضائية العراقية..وكذلك عمل البرامج التحقيقية عن مدينة بابل او عن مبدعيها وتفعيل كافة الطاقات الفنية في المحافظة وتاهيل هذه الطاقات الشابة من خلال زجها بدورات مع طاقات مبدعة اصيلة يتم جلبها من خارج المحافظة..

❖ كيف تقيمون الحركة الفنية العراقية؟

- الفن العراقي المعروض من خلال القنوات الفضائية فن يراوح في مكانه واحيانا يتقهقر الى الوراء وهذا ما نلمسه في اعمال درامية ركيكة تسخر من ذائقة المشاهد العراقي ..ان القائمين على الفن في العراق تنقصهم الخبرة والوعي في اختيار الاعمال الناضجة وتعتمد العملية الانتاجية على الاخوانيات والمصالح الشخصية..ان الفن العراقي يعاني من عقدة الفصام النفسي في كل مفاصله ابتداءا بالتاليف والممثلين والفنيين ونزولا الى ادنى حلقاته..ان خلق الرموز الصنمية في الفن هي التي قتلت الفن العراقي كما قتلت الرموز السياسية الحياة السياسية العراقية..الدكتاتورية والجهل عند (اسياد) الفن العراقي هي التي اوصلت الفن الى ما وصل اليه من تردي وهبوط وعقدة الرأي الآخر لم تهضم عند هؤلاء (الاسياد) ..

❖ بيني وبينك اول انتاج ستقدمه شركة برج بابل..

❖ فلم سينمائي ومسلسل تلفزيوني يتم الاعداد لهما..